مصر والولايات المتحدة.. شراكة إستراتيجية وسط ألغام سياسية

محمد أبوالفضل
كاتب مصري

أصبح لسان حال الكثير من المراقبين لتطور العلاقات بين مصر والولايات المتحدة مشدودا نحو العثور على إجابة مقنعة على سؤال: هل تنتصر الشراكة الإستراتيجية بين البلدين وتبطل مفعول ألغام حقوق الإنسان التي بدأت تتناثر على جانبي طريق الإدارة الأميركية تحت قيادة جو بايدن أم تنفجر الألغام وتتأثر الشراكة سلبا؟

في المرات التي أبدت فيها واشنطن تجاوبا سياسيا وأمنيا مع القاهرة زجت بملف حقوق الإنسان إلى الدرجة التي يتصور كثيرون أنه الوحيد الذي يرسم شكل العلاقة بينهما، وما عداه يأتي لاحقا.

في الاتصال الهاتفي الذي أجراه وزير الخارجية الأميركي أنتوني بلينكن الثلاثاء 23 فبراير مع نظيره المصري سامح شكري نشرت الديباجة التقليدية الخاصة بالشراكة وأهميتها، ثم أردف البيان الأميركي القول إن بلينكن أثار مع شكري "المخاوف المتعلقة بقضية حقوق الإنسان في مصر والتي ستكون محورية في العلاقات الثنائية".

قبل أسبوع واحد من هذا الاتصال أعلنت الولايات المتحدة أنها وافقت على صفقة لبيع أسلحة لمصر بنحو 200 مليون دولار، واعترفت بأنها "لا تزال شريكا إستراتيجيا مهما لها في الشرق الأوسط"، ثم أكدت عزمها على "الضغط على القاهرة في ملف حقوق الإنسان". لم يغب هذا المحور سوى في اللقاء الذي عقده الرئيس المصري عبدالفتاح السيسي بالقاهرة مع قائد القيادة المركزية الأميركية الفريق أول كينيث ماكينزي في 22 فبراير.

يبدو أن ملف حقوق الإنسان سيكون المحدد الرئيسي الذي تقيس به الإدارة الأميركية رضاها أو غضبها مع الدول الحليفة وبينها مصر بعد أن سيطر على تفكير بعض وسائل الإعلام وأعضاء في الكونغرس وعدد من الطواقم السياسية في البيت الأبيض ووزارة الخارجية، ما يعني أن هناك استنفارا جماعيا، وإذا جرى الاحتكام إلى هذا الملف فقط، من الآن يمكن توقع ربيع ساخن بين واشنطن والقاهرة.

> الرسائل المتناقضة أصابت واشنطن بالحيرة فكيف تفتح هذا السجل على مصراعيه وهي ترى مقدمات تحرك إيجابي غير مألوف مكّن القاهرة من الإيحاء بأنها تريد تحسين سجلها

أكدت إدارة جو بايدن الأربعاء 24 فبراير أنها مستمرة في جهودها الرامية للعودة إلى الساحة الدولية عبر تحركات عدة، منها السعي للحصول على مقعد في مجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة، وهي إشارة تبيّن المضي في التسلح بالأدوات التي تمكنها من ممارسة دورها في هذا المجال، بمعنى أن المسألة لن تتوقف عند مصر.

جاء الرئيس بايدن محملا بميراث إدارة باراك أوباما السلبي في مجال الحريات مع القاهرة، ومستعينا بعدد كبير ممن عملوا في إدارته، وهو مبرر يكفي للقول بكثرة الشد وقلة الجذب حتى لو حاول البنتاغون ضبط جانب من التوازنات كي لا تختل العلاقات مع مصر أو تتأثر بما سيتم ترديده من خروقات بشأن السجل الحقوقي.

رفعت واشنطن سقف التوقعات في مجال حقوق الإنسان معتقدة أنها قادرة على تغييره بالطريقة التي تريدها، وتتجاهل أن هناك بيئة سياسية راسخة مكنت الكثير من الأنظمة المصرية من التعامل مع الحريات وفقا لمفهومها الخاص، قد يتصاعد أو يهبط في منظومة العلاقات المشتركة، لكن يظل محل تساؤلات من جانب واشنطن وممانعة من القاهرة.

في أوج العلاقات الزاهية بين الولايات المتحدة ومصر إبان عهد الرئيس الراحل حسني مبارك لم تغب ظلال حقوق الإنسان، ومثلت منغصا أساسيا فيها، لكنها لم تؤد إلى قطيعة أو تقود إلى استخدام أدوات قاسية للضغط عليه بالقدر الذي يجبره على تلبية كل مطالب الإدارات الأميركية التي تعاقبت عليه وهو قابع في السلطة.

عندما حدث الضغط الحقيقي كان الرجل في ظرف استثنائي يتعلق باندلاع ثورة 25 يناير 2011، حيث تأكدت واشنطن وقتها أن نظام مبارك في سبيله إلى الرحيل ولن يستطيع الصمود أمام الحشود البشرية في شوارع وميادين القاهرة الرئيسية، وجاء ملف الحريات مغلّفا بهذه الثورة وليس مستقلا بذاته.

يتعامل النظام المصري مع إدارة بايدن بخليط من الاهتمام واللامبالاة في ملف الحريات إلى حين يتأكد من نواياها الحقيقية، حيث اتخذ خطوات إيجابية بالإفراج عن عدد من المعتقلين المدنيين، وأمعن في اتخاذ إجراءات ضد قيادات إخوانية ووضعها على لوائح إرهاب، ومصادرة أموال يتم استخدامها في تمويل عمليات عنف.

أصابت الرسائل المتناقضة واشنطن بالحيرة، فكيف تفتح هذا السجل على مصراعيه وهي ترى مقدمات تحرك إيجابي غير مألوف؟ ومكّن هذا النوع من التحرك المحسوب القاهرة من الإيحاء بأنها تريد تحسين سجلها.

وكل ما اتخذته سابقا من خطوات تضييق في الفضاء العام كان سببه وجود تهديدات ومخاطر وليس رغبة في ارتكاب انتهاكات ضد أحد، ويفسر تزايد اهتمام الرئيس السيسي بالبسطاء والفقراء وسكان العشوائيات وتحسين مستوى معيشتهم على أنه يندرج ضمن حقوق الإنسان المنسية في الأجندة الأميركية.

تريد القاهرة حصر ما يتردد على أنه انتهاكات في ملف حقوق الإنسان على جماعة الإخوان لتتمكن من حصد تعاطف من الذين لا يثقون في توجهات قيادات الجماعة في الغرب، ووضع العصي بين عجلات الإدارة الأميركية ليبدو دفاعها عن الحريات كأنه محصور أو مرادف للدفاع عن الإخوان.

صوّر الاهتمام الأميركي الواسع بالحريات عموما في مصر أن بايدن قرر اعتماده كبوصلة سياسية له، وهو تصور عززته تصريحات سلبية صدرت عن مسؤولين حيال القاهرة إلى الدرجة التي جعلت وزارة الخارجية في أول بيان إيجابي نحوها والخاص بصفقة الأسلحة تشير إلى تعهدها بمتابعة قضية اعتقال عدد من أفراد أسرة إخواني مصري يحمل الجنسية الأميركية كعلامة على أنها لن تتهاون في هذه القضايا.

أضفت التلميحات والتصريحات المتباينة طابعا جديا وقابلته الإدارة المصرية بجدية مماثلة، حيث تريد جر واشنطن إلى الدفاع فقط عن التيار الإسلامي بما يفرغ خطابها السياسي من مضمونه العام لدى المصريين ويعيد تذكيرهم بأن بايدن نسخة مكررة من أوباما، ويبدو الرجل مدافعا شرسا عن حقوق الإنسان ليعيد الإخوان إلى السلطة، أو على الأقل السماح لهم بالانخراط في المشهد السياسي.

نجح النظام المصري في توسيع الفجوة بين الإخوان وبين المواطنين ليجهض أي محاولة أميركية تبغي توظيفهم سياسيا في أي وقت، لذلك يواجه بايدن أشواكا في الشارع المصري، فإذا أراد التظاهر بالدفاع عن حقوق الإنسان كمبدأ سيجد نفسه وجها لوجه أمام الدفاع عن فصيلة واحدة من المصريين، ما يفقده جانبا من مصداقيته، وهو الرهان الذي تعوّل عليه القاهرة للحفاظ على علاقتها الإستراتيجية مع واشنطن وانتصارها على أي معوقات، إذ تعتقد أن ضرورات الشراكة لن تبيح المحظورات والألغام في مجال حقوق الإنسان الذي ورثه النظام المصري عن سابقيه.

العراق أولوية أميركية ولكن..

إبراهيم الزبيدي
كاتب عراقي

يكاد يكون جيلنا العراقي أكثر الأجيال العراقية والعربية وربما العالمية خبرةً بالانقلابات وما يعقبها من حملات اجتثاث وطرد موظفين واعتقال لـ"أزلام" العهد البائد وإلغاءٍ لقراراته وسياساته واتخاذٍ لقرارات وسياسات معاكسة تماما.

فقد استحق العراق بجدارة لقب القائد المؤسس لأول جامعة تعلم الانقلابات العسكرية لدول المنطقة. فقد علم السوريين والمصريين والسودانيين واليمنيين والإيرانيين والأتراك مهنة الانقلاب العسكري، وفنون الانتقام من قادة الأنظمة "البائدة" ومن كل مَن ساندها ذات يوم أو هتف بحياة أحد زعمائها أو كتب مقالة أو قصيدة أو غنى أغنية عن القائد المطرود.

فالعراق، ولا فخر، صاحب أول انقلاب قام به فصيل من الجيش بقيادة الفريق بكر صدقي في أكتوبر 1936. ثم أعقبه انقلاب رشيد عالي الكيلاني 1941، فانقلاب عبدالكريم قاسم وعبدالسلام عارف 1958، ثم انقلاب العقيد عبدالوهاب الشواف في مارس 1959، فانقلاب البعث في فبراير 1963، فالانقلاب الآخر الذي أطلقوا عليه اسم "ردّة تشرين" 1963، فانقلاب البعث الأخير في 1968، وصولا إلى الغزو الأميركي الذي كان ملك الانقلابات وأباها وأمها.

وبعد تاريخ طويل مثقل بالدماء والدخان والدموع أصبح المواطن العراقي بعقله وقلبه وروحه لا يتمنى سوى أن ينتهي زمن الخوذ الحديدية وزوار الفجر الأشقاء، وأن يعود إليه وطنه مدنيا متحضرا مسالما بدون مقاومة شعبية ولا حرس قومي ولا فدائيين موكلين بحماية الرئيس المفدى، ومتعاون مع دول العالم كلها على البر والتقوى وليس على الإثم والعدوان.

وبصراحة ودون لف ودوران لقد ظن عراقيون كثيرون يُعَدّون بالملايين بأن الولايات المتحدة التي غزت بلادهم سوف تجلس عندهم ضيفةً أسابيع أو شهورا وتعود إلى ديارها، بعد أن تكون قد أعانتهم على إقامة دولة الديمقراطية غير المغشوشة وسلطة القانون والعدالة والحرية والرخاء. ولكن الذي فعلته الولايات المتحدة بالعراق لم يفعله به احتلالٌ آخر قبل احتلالها.

فرغم كل مساوئ الانقلابيين العراقيين، من أولهم وحتى آخرهم، فقد كانوا يحافظون على الجيش والأمن والقضاء والمؤسسات، بعد تطهيرها من ذيول العهود "البائدة"، ثم تعود الحياة إلى سيرتها الأولى بعد أيام وأحيانا أسابيع.

أما الجنود الأميركيون وحلفاؤهم الإيرانيون فقد اجتثوا الدولة العراقية كلها من جذورها، وقتلوا واعتقلوا وأحرقوا ونهبوا واغتصبوا وشردوا وهجّروا وفعلوا ما لم يفعل رُبعَه العسكريون العراقيون في جميع انقلاباتهم السابقة، ثم أقاموا عندنا إقامةً تدل ظواهرها على أنها إقامة دائمة، فلم يعودوا إلى ديارهم بأسابيع، ولا بشهور ولا بسنين، ولا يبدو أنهم سيغادرون.

ثم برغم كل ما أصبح عاديا في عراق الإيرانيين من ظلم وعدوان وإفقار وإرهاب، ورغم سطوة سلاح الميليشيات على الرئاسات والقضاء والوزارات وعلى التجارة وبيوت القمار والمخدرات والدعارة، فقد ظلت الإدارات الأميركية المتعاقبة تتعامى ولا ترى أي شيء منه وتمتدح الديمقراطية فيه وتدافع عنها بضراوة، حتى ظهر الرئيس (الجمهوري) الآتي من خارج المنطقة الخضراء الأميركية، فرأى أن ما تفعله إيران بالعراق شرّ، وما يفعله وكلاؤها به شرا، فحمل عليها وعليهم العصا الأميركية الغليظة وأشعل في نفوس العراقيين الأمل في خلاص قريب. وهنا نصل إلى مربط الفرس في هذه المقالة.

> بعد تاريخ مثقل بالدماء أصبح المواطن العراقي لا يتمنى سوى أن ينتهي زمن الخوذ الحديدية وزوار الفجر ويعود إليه وطنه مدنيا متحضرا دون مقاومة شعبية وحرس قومي موكلين بحماية الرئيس المفدى

نعم إن العراق أولوية أميركية دون شك. ولكن لكل رئيس أميركي فهمه لمعنى الأولوية وحدودها وأبعادها وأهدافها.

فالرئيس السابق دونالد ترامب رأى أن إعادة العراق إلى محيطه العربي وإخراجه من سجنه الإيراني الطائفي العنصري المظلم المتخلف سوف تعيد إليه أمنه واستقراره، ثم تعيده إلى المنطقة وطنا سالما ومعافى وعامل أمن وسلام، وفي ذلك خدمةٌ لمصالح الدولة الأميركية العليا وحدَها قبل غيرها.

أما غريمه (الديمقراطي) جو بايدن الذي جاء بما يشبه الانقلاب العسكري فقد فعل تماما ما كان يفعله الانقلابيون العراقيون. فهو فور دخوله البيت الأبيض راح يمحو قرارات سلفه ترامب، ويستبدل سياساته المتشددة مع النظام الإيراني بسياسات المهادنة والملاطفة، متوهما بأن ذلك سيعيدها إلى طاولة المفاوضات، رغم علمه بأن ذلك يعني بالضرورة إطالة أمد احتلالها للعراق، ومواصلة اتخاذه قاعدتها المتقدمة في المنطقة لتخريب حياة شعوبها وتعطيل عمرانها وبعثرة ثرواتها، وأيضا وفوق كل ذلك لقتل الأميركيين أنفسهم عندما تقتضي الحاجة والظروف.

وحين نسمع منه أو من كبار معاونيه القول بأن الولايات المتحدة الديمقراطية ملتزمة بالدفاع عن أمن الحلفاء، نتساءل: حسنا، هل هناك مُعتدٍ آخر ليس إيرانيا على هؤلاء الحلفاء؟

ألا تعلم دوائر المخابرات الأميركية المتغلغلة في شرايين العراق وأوردته بما لا مزيد عليه بأن العراق اليوم ليس سوى معسكر حربي متقدم لإيران وصواريخها وطائراتها المسيرة؟

وقد نقلت وكالة أسوشيتد برس الأميركية عن مسؤول كبير في ميليشيا مدعومة من إيران (لم تسمّه) قوله إن "3 طائرات مسيرة انطلقت من مناطق حدودية عراقية – سعودية من قبل فصيل تدعمه إيران في العراق وانفجرت في المجمع الملكي بالرياض في 23 يناير الماضي".

كما أن الميليشيات التي قصفها الجيش الأميركي في سوريا في أول عمل عسكري تقوم به إدارة بايدن هي ميليشيات عراقية إيرانية الولادة والولاء، وقد اعترفت وزارة الدفاع الأميركية (البنتاغون) بأن العملية "دمرت عدة منشآت تستخدمها الجماعات العراقية المسلحة المدعومة من إيران ردا على هجمات صاروخية إيرانية ضد أفراد أميركيين وأوروبيين في العراق".

فهل هذه الضربة مقدمةٌ أميركية لعهد جديد من الحزم والحسم مع الإرهاب الإيراني فيها الكثير من ملامح سياسة العصا الغليظة الترامبية المتشددة، أم هي مجرد رسالة عابرة في مسلسل الجهود الأميركية الناعمة لإقناع المرشد الأعلى الإيراني بضرورة الجلوس معا على الطاولة من أجل تفاهم وتناغم وتقاسم بين حليفين لدودين؟ الله أعلم.

أما العراقيون المتعبون المحبطون المتخوفون مما تحمله الأيام القادمة فيسألون الرئيس الأميركي بايدن، أليس عراقٌ آمنٌ ومستقر ومسالم ومزدهر وذو جيرة حسنة وصادقة مع دول الجوار وإيران منها وفي طليعتها ومع الولايات المتحدة نفسها عاملُ استقرارٍ وازدهار للمنطقة كلها وللعالم ومنفعةٌ للولايات المتحدة ومصالحها؟

العرب
أول صحيفة عربية صدرت في لندن
1977 أسسها
أحمد الصالحين الهوني

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير المسؤول
د. هيثم الزبيدي

رئيس التحرير والمدير العام
محمد أحمد الهوني

مدراء التحرير
مختار الدبابي
كرم نعمة
منى المحروقي

مدير النشر
علي قاسم

المدير الفني
سعيدة اليعقوبي

تصدر عن
Al-Arab Publishing House
المكتب الرئيسي (لندن)
The Quadrant
177 – 179 Hammersmith Road
London, W6 8BS, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للإعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

www.alarab.co.uk
editor@alarab.co.uk